دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني

عمر سرحان

لا نعرف الكثير عن الحياة الشخصية للدكتور توفيق كنعان ، رائد حركة احياء الفولكلور الفلسطيني ، وان كنا نملك مادة وفيرة من كتبه ومقالاته التي استمر ينشرها تباعا ابتداء من العشرينات من هذا القرن . وقد كان يعمل طبيبا في المستشفى الالماني في القدس . واصبح في عام ١٩٢٧ رئيسا لجمعية الاستشراق الفلسطينية . ويبدو ان الدكتور كنعان نشر معظم دراساته وابحاثه باللغتين الانكليزية والالمانية(١) وان المادة الوفيرة التي جمعها عن ملامح الحياة الشعبية الفلسطينية كانت مكرسة لتعريف الانسان الغربي بحياة سكان فلسطين ـــ الاراضي المقدسة .

وتقول د. هيلما جرانكفيست الباحثة الفنلندية المتخصصة في دراسة الحياة الشعبية الفلسطينية ان د. توفيق كنعان باحث محنك تمرس في دراسة المأثورات الشعبية الفلسطينية منذ فترة طويلة . وتصفه بأنه صديق قديم لها تعرفت عليه اثناء عملها في ميدان الفولكلور الفلسطيني في الفترة بين عامي ١٩٢٥ ـــ ١٩٣١ . وفي عام ١٩٥٩ قابلته جرانكفيست ثانية عندما زارت القدس مجددا . وتقول جرانكفيست ان الرجل اذ ذاك كان مريضا . وكان فقد بيته ومكتبته ومجموعاته ومخطوطاته عندما أصبح بيته في المنطقة الحرام في القدس بعد حرب عام ١٩٤٨ . ومع ذلك فهي تشهد له في ذلك الوقت بأنه ظل على نشاطه المعهود يقرأ ويكتب ويجمع المادة الفولكلورية الخام ويلقي المحاضرات في هذا المجال .

ونحس بذلك الحماس المتوقد لدى الدكتور توفيق كنعان والرغبة الصادقة في جمع ملامح الحياة الشعبية في ما يكتبه في مقدمة كتابه « المزارات والاولياء المسلمون في فلسطين » حيث يقول : « ان الملامح البدائية لفلسطين تختفي بسرعة كبيرة . ولن يمضي وقت طويل حتى تتلاشى هذه الملامح نهائيا . ولذلك فانه من واجب كل طالب ودارس فلسطيني متخصص في دراسة الفولكلور أن لا يضيع أدنى وقت وأن ينشط لجمع العادات والمعتقدات الشعبية والملامح الفولكلورية الدارجة في فلسطين » . ويضيف الدكتور كنعان في مكان اخر من المقدمة فيقول : « وانا كابن لهذه البلاد شعرت انه من واجبي أن أعاون في هذا الجهد العلمي . وبما انني لا ادعي انني دارس محترف فانني أحاول هنا أن أضع المادة الفولكلورية الخام كما جمعتها تاركا للدارسين المحترفين امور تفسيرها ومقارنتها » .

وتأتي دراسة الكاتب الحالي لاعمال توفيق كنعان المنشورة بالانجليزية كمحاولة اولية لنفض الغبار عن تلك الاعمال الاصيلة تمهيدا لنقلها او نقل الافكار الرئيسية فيها الى اللغة العربية والتنويه بأبرز ملامح الحياة الشعبية وعلى الاخص منها المعتقدات الشعبية التي تبرز الثقافة الاساسية والبدائية للانسان الفلسطيني . وتكمن اهمية المادة التي جمعها الدكتور كنعان في أن هذه المادة قد جمعت في وقت مبكر من هذا القرن ، ذلك الوقت الذي عاش فيه العديد من الرجال والنساء المسنين الذين عاشوا ومارسوا تلك المظاهر الحياتية التي اثبتها لنا الدكتور توفيق كنعان . ومن جهة اخرى